التلازم في الطبيعة

لا ينفك الإنسان ومن جاوره ورافقه من المخلوقات الأليفة التي سخرت لأجله كالأبقار والأغنام والخيل والبغال والحمير والطيور الداجنة، تجاوره وتلازمه في البيت أو في المزارع. إن هذه الحيوانات والطيور الأليفة مسخرة وخادمة لهذا الإنسان وزينة له في نفس الوقت. هذا هو التجانس والتلازم والتكامل في الطبيعة.

كانت منازلنا وبيوتنا سابقا من الطين وأسقفها من جذوع النخل وجريدها، ومتجاورة لزقا بلزق" أي ليس بينهم مسافات للتهوية وعلى الرغم من صغر مساحتها الا أنها تضم في جانب منها حوش للبهائم والطيور الداجنة وكانت تسمى سابقا " البوارق " أو " السمايد " نسبة لما تخلفه هذه البهائم والطيور من روث يستخدم في تسميد تربة النخيل والمزارع.

يوجد في هذه السمايد الأبقار والأغنام والحمير والدجاج البائض والحمام، وتحلب هذه الأبقار والأغنام ويستفاد من حليبها للغذاء وصنع اللبن والأجبان، أما الحمير فتستخدم للنقل وللذهاب الى النخيل والمزارع باكرا اذ كان هو الوسيلة الوحيدة للتنقل آنذاك.

كان لنا بمنزلنا بحي السدرة بشارع الفوارس مثل تلك الحيشان وكانت الوالدة رحمها ا تحلب البقرة التي كانت تتواجد بالمنزل. هذا حال معظم البيوت المجاورة. المتعة هنا تكمن في أن الناس في الماضي كانت تملك وتصنع في منازلها إضافة الى متعة شراء البرسيم الذي كنا نقوم به بشكل يومي لتك البهائم. ولا تخلو المتعة أيضا من ملاطفة تلك البهائم وترويضها واطلاق الأسماء عليها الى درجة أنها كانت تتبع راعيها وتعرفه إذا نادى عليها.

ظلت هذه الأنعام ملازمة للإنسان وتنام معه في نفس المنزل لزمن طويل، وتغير الحال الآن وانتقلت الى المزارع، بسبب المدنية الحديثة. توجد الآن في بعض البيوت الكبيرة أقفاص يحفظ فيها الطيور الداجنة.

الطيور أيضا كان لها النصيب الأوفر من التربية في المنازل قديما وحديثا وترويضها وتعليم بعض من لديه القدرة على الكلام. هنا في دوحتنا الجميلة كان نصيب البلبل الأبيض الخدين نصيبا كبيرا وحظا وافرا من التربية والعناية لما يمتاز هذا الطائر الجميل من الذكاء والصوت الجميل الشجي والحب

وابداء التحية والحركات البهلوانية ولعبه المتواصل التي تنم عن حبه لمن في المنزل والعناية بنفسه من ناحية النظافة ويسليك بطيرانه والتنقل بين رأسك وكتفيك ويستمتع بالتقاط طعامه من يديك. ولا زال الحال الى الآن وقد أصبح من تراث الأحساء الشعبي.

و من النوادر في الشعر الأحسائي: اتصل الشاعر الأستاذ صادق السماعيل بصديقه الشاعر الكبير الأستاذ ناجي الحرز وقت القيلولة، فقال له مداعبا هذه الأبيات الدارجة:

لا تتّصل بي ساعة القيلوله

ترى البراغي كلّها محلوله

والنّاس يا بن الناس في هالسّاعه

تصدق عليهم كلمة مقيوله

اللّي مسرّح عجلته في السكّه

و اللّي مطيّر في السّما بلبوله

التفتوا الى هذه النكتة اللطيفة من شاعرنا ناجي الحرز كلمة مسرّ ِح عجلته في السكة....يعني أن البهائم كانت بالبيوت.

ذكرني هذا البيت من الشعر بهذه الأسطورة ولعل الشاعر اراد الإشارة اليها:

رحم ا جداتنا وأمهاتنا حيث كانوا يخوفوننا من حمار(ة) القايلة ومعناها حمار وقت الظهيرة، ويقولون لنا لا تخرج هذا الوقت لا تأكلك حمارة القايلة. وهي اسطورة ظهرت في المجتمعات العربية "وفي

الأحساء" لمن يكثر السير والتجوال في وقت الظهيرة، ومن لا ينام في قيلولة الصيف خاصة الأطفال، والأسطورة شبيهة جدا بالغول والغولة أو السعلوة الذين يملكون رأس إنسان وأرجل حمار وجسم آدمي ويقال انه وحش مخيف يأكل الأولاد الصغار الذين يخرجون في وقت الظهيرة.

وقال الشاعر الكويتي سالم الرميضي في البلبل:

ترنم بلبل بالصبح شادِ .

فأروي كل ظمآن وصادِ

له صوت رخيم مخملي

تغلغل خلسة فسبي فؤادي

ومن منا اذا جاء ذكر البلبل لا يذكر قصيدة الأصمعي التي مطلعها:

صَوتُ صَفِيرِ البُلبُلِ

هَيّجَ قَلبِي التَعِلِ

كذلك الحمام الحساوي كان له من التواجد في البيوت، حيث أنشأت له الأبراج الخشبية وفيها أعشاشها وبيوتها تتكاثر فيها، وبعظهم قام بتدريبها والمشاركة بها في السباقات لآلاف الأميال من مختلف مناطق المملكة. كان لي صديق يأتي جلساتنا بالمزرعة وكم كان يتكلم بمتعة عن هوايته تلك وكم تكون فرحته حينما تصل الحمامة بالرغم من ما يعترضها من المخاطر من الطيور الجارحة خلال الطريق، وما أشد وفاء هذا الطائر اذ بإمكانه الهرب والحرية، لكنه التجانس والتآلف والوفاء.

ولقد نالت الخيول من العناية الفائقة بما لا يتصوره أحد، وجاء ذكرها في القرآن ثلاث مرات، وسميت بالصافنات الجياد في آية أخرى. وجاء في كتاب لماذا نقدس القرآن للعلامة الشيخ باقر بوخمسين:

" ولاحظ المستشرق موريس لومبار ما شهدته تربية الحيوان من التقدم التقني الكبير في دراسة خصائصها وأصولها، كما تشهد بذلك الكتب العديدة التي وضعت في هذا الموضوع، وإن الدارسين اهتموا بتصنيف مزايا الخيول وعيوبها وأمراضها وسرعتها بدقة.

ونظراً لأهمية الخيول الأصيلة في الحروب القديمة، فقد تخصص الحصان العربي في فن الحرب، وأصبح أداة الحرب الأولى بالنسبة للفارس العربي الذي بدا من جانبه يضفي على الحياة العربية لوناً جديدا لم يألفه العرب في جاهليتهم البعيدة في التاريخ، فأصبح بين العرب سادة فرسان، بل ومغامرون يجوبون الفيافي، وجاءت ظاهرة (الغزو) بين القبائل، بل وبلغت الحال أن سمّيت بعض الحروب بأسماء الخيل فكانت حرب (داحس والغبراء) وظهر فرسان ومغامرون أمثال امرئ القيس، وتغيّرت العلاقات بين القبائل البدوية ودخلت في الحركة السريعة بما يكاد يذكرنا في عهدنا الحديث بحركات الحرب الخاطفة، ووسائل الغزو الآلي الحديث.

وفي وصفها يقول أمرىء القيس في معلقته:

في وصف الخيل:

وَقَـــد أَغتَدي وَالطَيرُ في وُكُـناتِها

بِمُنجَرِدٍ قَـيـدِ الأَوابِـــدِ هَـيكَلِ

مِـــكَرٍّ مِـــفَرٍّ مُـقبِـلٍ مُـدبِـرٍ مَـعـاً

كَجُلمودِ صَخرٍ حَطَّهُ السَيلُ مِن عَلِ

كُـمَـيتٍ يَـزِلُّ اللِبدُ عَـن حالِ مَـتنِهِ

كَـــمـا زَلّـَـــتِ الـصَـفـواءُ بِـالـمُـتَـنَـزّـَلِ

الى أن يقول:

لــه أيطلا ظبي وساقا نعامة

وإرخاء سرحان وتقريب تتفل

ما أجمل وفاء الحصان لصاحبه وما أكثرها في تاريخ الإنسانية ومن منا لا يذكر هذه الصورة الجميلة التي رسمها عنترة في معلقته:

يَـــدْعُـونَ عَـنْـتَـرَ والـــرّـِمَـاحُ كَـأَنّـَـهـَا

أَشْـطـَـانُ بِـئْـرٍ فـي لـَـبـَانِ الأَدْهـَـمِ

مَـــا زِلْـــتُ أَرْمِـيـهم بِـثُـغْـرَةِ نَـحْـرِهِ

ولـَـبـَـانِـهِ حَـــتـَـى تـَسـَرْبـَـلَ بِـالـدّـَمِ

فَـــازْوَرّـَ مـــن وَقْـــعِ الـقـَـنـَا بِـلـَـبـَانِهِ

وشَـــكـَـا إِلـَـــىّـَ بِـعـَـبْـرَةٍ وتـَـحـَـمْـحُـمِ

لو كَانَ يَدْرِي مَا المُحَاوَرَةُ اشْتَكَى

ولـكـَـانَ لـَـــوْ عَـلِـمَ الـكـَلامَ مُـكـَلّـِمِي

أو هذا الموقف النبيل من فرس الإمام الحسين لما أن صرع الإمام عليه السلام فجائه ولطخ ناصيته بدمه ثم ذهب الى المخيم وهو يصهل صهيلا عاليا. قال إمامنا الباقر عليه السلام كان يقول: الظليمة، الظليمة من أمة قتلت ابن بنت نبيها.

وإذ كان للخيل نصيب، فنصيب الإبل لا يقل شأنا عنها وقد ذكرت في القرآن بصيغ مختلفة كالجمل مذكرا والناقة مؤنثا وجاء الاستشهاد بها من عجائب خلقة ا " أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ". والإنسان هو الذي جاورها وسكن معها وخرج الى البوادي والصحاري وبنى بيوت الشعر ونصب الخيام وهيأ سبل الحياة والعيش معها وصاحبها. وقد اطلقت الأسماء الكثيرة عليها فسميت بالقلوص وبالعيس، وسفينة الصحراء، قال الشاعر ابراهيم بن العباس الصولي:

ولو سوئلت عني القلوص لأخبرت ... عن مستقر صبابة ،، المحزون

والقلوص هي الناقة.

ومما قالت العرب في الجمل ما جاء في قصيدة العباس بن مرداس وقيل لكثير عزة:

لقد عظم البعير بغير لب ... فلم يستغن بالعظم البعير

يصرفه الصبي لكل وجه ... ويحبسه على الخسف الجرير

وتضربه الوليدة بالهراوى ... فلا غير لديه ولا نكير

وفي العيس قالوا: حيث وردفي كتاب العقد الفريد لإبن عبد ربّه الاندلسي أنه قال: فقد ذكر المبرّد إنه خرج مع رفاق له من بغداد متجهين إلى واسط فمالوا إلى " دير هرقل " الموجود على الطريق وهو ملجأ المجانين، فقررا الدخول إليه لرؤية ملامح من فيه، فوجدا شابا "حسن الوجه، مرجل الشعر، مكحول العين، أزج الحواجب، كأن شعر أجفانه قوادم النسور، وعليه طلاوة تعلوها حلاوة، مشدود بسلسلة إلى جدار". نظر إليهما دون أن يسلّم ثم أنشد قائلا:

ـما أنـاخوا قـبيل الـصبح عيسهمو

وحـمـلوها وسـارت بـالدمى الإبـل

وقـلـبت بـخـلال الـسجف نـاظرها.

تـرنـو إلـــي ودمـــع الـعـين يـنهمل

وودعـــــت بـــبـنـان زانـــــه عـــنـــم

نـاديـت لا حـملت رجـلاك يـا جـمل

ويلي من البين ما ذا حل بي وبها .

مـن نـازل البين حل البين وارتحلوا

يـا حـادي العيس عرج كي أودعهم

يا حادي العيس في ترحالك الأجل

إنـي على العهد لم أنقض مودتهم

يا ليت شعري لطول البعد ما فعلوا

وما يحلوا الحداء الا بقوافل الإبل ولربما من أشهر ما قيل في ذلك هو حداء الطرماح لقافلة الإمام الحسين:

يـا ناقتي لا تذعري من زجري

. وامضي بنا قبل طلوع الفجر

بخير فتيان وخير سفر.

آل رسول ا أهل الفخر

السادة البيض الوجوه الزهر.

الطاعنين بالرماح السمر

فلم تقتصر المجاورة بالأبدان، بل تعدتها الى المجاورة الأدبية والتغني بها بالمعشوق والمحبوب.

وتجارة الإبل في بلادنا من أروج التجارات وأربحها وهناك قصص كثيرة عن بيع أبل بأثمان باهظة سيما اذا كانت تستخدم للسباق.

ما أكرم الإبل علينا كلها خير لحمها ووبرها ولبنها وحليبها وخدمتها في قطع الفيافي دون شكوى حاملة اثقالنا " إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلا بِشِقِّ الأنْفُسِ "

وذكرت الإبل في مواضع عديدة من أمثال العرب ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

اتخذ الليل جملا، ومعناه: ركب الليل في حاجته، ولم ينم حتى ادركه، ومما ورد عن ابي عبدا الحسين بن علي عليه السلام قوله لأصحابه، انتم في حل من بيعتي، وهذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملا، وتفرقوا في سواده.

ولم تقتصر ملازمة هذه المخلوقات للإنسان على حياته اليومية والاستفادة منها في مأكله ومشربه وحله وترحاله والمتاجرة والمتعة بها. بل لازمته في ثقافته وأدبه وذهنه فراح يؤلف الكتب لدراسة حياتها كما ذكرنا أعلاه ولعل من أشهر تلك الكتب الذي يعرفه جميعنا كتاب حياة الحيوان الكبرى لكمال الدين

الدميري، وكتاب الحيوان للجاحظ، وكعجائب المخلوقات وغرائب الموجودات لزكريا بن محمد القزويني.

ومن شدة عناية المسلمين بالخيل حيث جعلوا لها البراقع البديعة الجمال، والجلاجل المذهبة التي يملا الجو أصوات أجراسها، واطلاق الأسماء الجميلة عليها قديما وحاضرا ومن أسماء خيل جياد رسول ا صلى ا عليه وآله: السكب والمرتجز والورد. وألفت فيها الكتب، ومنها كتاب: (الاحتفال في استيفاء ما للخيل من الأحوال) لمحمد بن رضوان، و(مطلع اليوم والإقبال في انتقاء كتاب الاحتفال واستدراك ما فاته من المقال) لعبد ا بن جزي.

وبين لنا القرآن الكريم جانبا من فلسفة خلقة هذه الكائنات والغرض من وجودها بيننا، جاء في قوله تعالى: " ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون" الجمال ما يتجمل به ويتزين، والجمال: هو الحسن. وقد جمل الرجل - بالضم - جمالا فهو جميل، والمرأة جميلة، وجملاء أيضا; عن الكسائي. وأنشد:

فهي جملاء كبدر طالع ** بزت الخلق جميعا بالجمال

وقول أبي ذؤيب:

جَمالَكَ أَيُّها القَلبُ القَريحُ ** سَتَلقى مَن تُحِبُّ فَتَستَريحُ

وجمال الأنعام والدواب من جمال الخلقة، وهو مرئي بالأبصار موافق للبصائر. وقيل ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وذلك في المواشي حين تروح إلى المرعى وتسرح عليه. والرواح رجوعها بالعشي من المرعى، والسراح بالغداة; تقول: سرحت الإبل أسرحها سرحا وسروحا إذا غدوت بها إلى المرعى فخليتها، وسرحت هي، ومنه قول الشاعر:

كأنَّ بَقايا الأتْنِ فَوْقَ مُتُونِهِ ** مدَبٌّ الدَّبى فَوْقَ النَّقا وَهْوَ سارِحُ

لعل الشاعر يصف حمارًا وحشيًا. يقول : إن الأتن قد عضضنه، فتركن فوق متونة آثارًا، كانت كأنها طريق للدبى، وهو صغار الجراد. فوق النقا، وهو الكثيب الأبيض من الرمل.

ومما قيل فيها: " وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً " أي جعلها لكم زينة تتزينون بها مع المنافع التي فيها لكم، للركوب وغير ذلك.

لا يمكننا ارجاع الساعة الى الوراء ولكن مازال الأنسان وثيق الصلة بطبيعته وبيئته حيث تمده بالتوازن الذي وضعه ا في الأرض، لذلك رأينا أسلافنا يعيشون معها في نفس المكان. كما أن مشهدنا الحاضر ملئ بالدراسات العجيبة والمفيدة بالكلمة والأفلام الوثائقية التي تقدم فيه الإنسان تقدما باهراً. إن الخوض في مثل هذه الدراسات جميل ومثير للاهتمام وله لذته ومذاقه الخاص.